إشكالية ثنائية الأنا والآخر في الضمير العربي المعاصر.

د/الصادق دهاش
جامعة البليدة 2

تاريخ الإرسال: 17-05-2018 **تاريخ القبول:18-10-2018**
تاريخ النشر:12-12-2018

ملخص:
تتناول هذه الورقة البحثية موضوعا خطيرا من حيث الفكر والمنهج، وهي تعالج مقاربة حساسة جدا بين الذات العربية المتميزة بخصوصياتها التاريخية والثقافية والحضارية والآخر الأجنبي الذي يحاول جاهدا للنيل من هوية العرب والمسلمين، خاصة و أنه تم رفع شعار صدام الحضارات وسياسة العولمة الكاسحة لباقي الوطنيات والهويات.
وهل حقيقة كتب القدر على الأنا العربي أن يعيش صراعا دائما حتميا وأبديا مع الآخر الذي يدعي بأنه هو المسئول على تحضير الشعوب الضعيفة انطلاقا من أحقية اتباع وتقليد المغلوب للغالب .فالآخر (الغرب) مازال ينظر للأنا (الشرق)، على أنه بقرة حلوب تدر عليه بجميع أنواع الأرزاق باعتباره سوقا مربحة لاستيراد المواد الأولية وخزان بشري لاستهلاك المنتوجات الغربية، ومع ذلك فهو في نظر الغرب مصدر تهديد للمصالح الغربيَّة، وبؤر للمخاطر ولأنه حسب زعمهم منبع الإرهاب ومصدرا لتصديره، وعقبة كأداء في وجه تمدد المشروع الحداثي، الديمقراطي، العولماتي المتصهين.
الكلمات المفتاحية: الأنا ؛ الأخر؛ الضمير ؛العربي؛ الأوربي؛ المثاقفة؛ حوار الحضارات.

Abstract:
These two papers deal with a very serious issue in terms of thought and methodology. They deal with a very sensitive approach between the Arab self, which is distinguished by its historical, cultural and civilizational characteristics, and the other is foreign, which tries hard to undermine the identity of Arabs and Muslims, especially that the slogan of the clash of civilizations and the sweeping globalization . policy of the other nationalities Identities
Is the fact that fate wrote to the Arab ego to live a permanent and inevitable conflict with the other who claims to be responsible for preparing vulnerable peoples from the right of followers and the tradition of the knockout for the majority.
key words : Ego؛ other؛ Conscience؛ Arabi؛ European؛ Competency؛ Dialogue of Civilizations.

مقدمة:

يعالج هذا الموضوع إشكالية خطيرة تتضمن العلاقة بين الأنا والآخر في الضمير العربي لذلك ارتأينا أن نحلل ذلك الصراع المعلن والخفي بين الثنائية الاتصالية بين الأنا العربية الإسلامية في علاقاتها بالأخر في الضمير الجمعي العربي المتكون من تكون الوعي بخصوصية الفكر الحضاري العربي .

وعلى الرغم من بروز بعض الأصوات الغربية المعتدلة التي أصبحت تنادي بفتح باب الحوار بين الطرفين بدل سياسة الصراع التي لا تفيد إلا في تأجيج صور الحقد والكراهية والعنف والشحناء والبغضاء، إلا أن غياب صوت العقل و تمادي أرباب الأموال والسياسة في اللهث وراء تحقيق مصالحهم بأي الطرق و الوسائل أدى في النهاية إلى اتساع الهوة بين الأنا والآخر، وارتفع بذلك صوت الاصطدام والصراع على صوت الحوار والتعاون والتسامح والاحترام. وتختلف المنطلقات الفكرية والدينية والسياسية والحضارية بين الأنا والآخر مما يحتم على الطرفين مراجعة قناعاتهم وذهنياتهم التي يجب أن تنبني على احترام خصوصيات كل طرف للطرف الآخر بعيدا عن سياسة التجريم والتخوين والتكفير والتهديد والوعيد والدخول مباشرة في حوار حضاري جاد، وتعاون علمي ومعرفي وتكنولوجي حقيقي يعود بالنفع العام الذي يقلل من فرص بئر التوتر ويخدم السلم والأمن العالميين.
وتختلف المنطلقات الفكرية والدينية والسياسية والحضارية بين الأنا والآخر مما يحتم على الطرفين مراجعة قناعاتهم وذهنيا تهم التي يجب أن تنبني على احترام خصوصيات كل طرف للطرف الآخر بعيدا عن سياسة التجريم والتخوين والتكفير والتهديد والوعيد والدخول مباشرة في حوار حضاري جاد، وتعاون علمي ومعرفي وتكنولوجي حقيقي يعود بالنفع العام الذي يقلل من فرص بئر التوتر ويخدم السلم والأمن العالميين.
وأما الإشكالية التي أردنا طرحها في هذا العمل هو: ما طبيعة الصراع بين الأنا العربية والأنا الأوربية، وما نوع العلاقة التي تربطهما، وما هي مستويات التمايز بين الطرفين؟

1-جذور وعوامل عقدة التفوق الأوروبي:

توفرت جملة من الأسباب التي جعلت الإنسان الغربي ينظر إلى نفسه بنظرة العجب والكبرياء، فهو مصاب بمرض التفوق، والعليانية، فالإنسان الغربي يعتقد بالتفوق العرقي والإحساس بالدونية تجاه الآخرين[1]، وفي الحقيقة العامل الوراثي البيولوجي لا دخل له في تقدم الغرب، وإنما يرجع أساسا إلى نزعته العقلانية التي أدت إلى قوة العامل الاجتماعي والاقتصادي والثقافي التي حققها الغرب عبر مسيرته التنموية الطويلة، فتفوقهم المعرفي أدى بهم إلى تفوقهم العسكري[2].

ويعود هذا التفوق المتعدد المجالات، إلى عاملين أساسيين داخلي أو ذاتي وخارجي، فأما الأول فيرجع إلى منجزات عصر النهضة والثورة العلمية ومرحلة التنوير، والثاني خارجي يتمثل في استفادتهم من منجزات الحضارة العربية الإسلامية، فكان الغرب دائما يقارن نفسه بالآخرين، أي بالطرف الثاني المنهزم حضاريا وفكريا وثقافيا وعسكريا، فأوجد الغرب لنفسه عدوا ولو وهميا في كثير من الأحيان حتى يحافظ على قوته وتفوقه، ومن هنا حدثت إشكالية النظرة الثنائية للعالم: مجتمع حديث وتقليدي، أو متقدم وآخر بدائي، ساخن وبارد، عالم أول وثان وثالث[3]، والعولمة بمفهوم الأمركة التي تهدف إلى تصدير النموذج الديمقراطي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي الأمريكي إلى دول العالم كله، فهي تهدف إلى إذابة كل الوطنيات والقوميات والثقافات في الكيان الأمريكي المهيمن . وترجع أصول وجذور الزعم بالتفوق إلى تاريخية ولاهوتية (دينية) وأيديولوجية وثقافية وعرقية، بحكم اعتقاد الأوربيين بمركزية أوربا وعلاقتها بالأطراف، فمشكل الفردانية أعمى أبصارهم

وجعلهم ينظرون إلى الشعوب غير الأوربية بنظرة الدونية والتخلف فأصبح الفرد الأوربي يؤكد على ذاته الأوربية ويعتقد، بأن التاريخ بدأ ومازال يشع من أوربا للهيمنة على الآخرين.

I- ماهية الأنا والآخر وأبعادهما الحضارية:

لقد اختلفت مفاهيم وتفاسير الكتاب والباحثين لمصطلحي الأنا والآخر، وهذا شيء عادي جدا، ويعود أساسا لاختلاف أمزجة وأحاسيس وسلوكيات الناس باختلاف أفكارهم وثقافاتهم وحضارتهم، ولصعوبة ضبط المفاهيم الفكرية والفلسفية، فمثلا هناك فرق ولو بسيط بين الذات والأنا فما بالك بين الذات والآخر، فلكل مصطلح سقف أعلى وحد أدنى فمثلا يصعب على غير الباحث التميز بين الأنا والذات لذلك "فالذات هي الهدف الذي تطمح الأنا للوصول إليه، فهي المكون الأكثر تكاملا وارتقاء من الأنا "[4].

لقد عرّف البعض كلمة "الأخر" على أنها كلمة مركبة من سلوكيات وصفات وخصائص نفسية واجتماعية وفكرية ينسبها فرد ما إلى الآخرين[5]. وتأسيسا لما سبق، كان من الأفضل طرح التساؤل التالي: هل تتعد الأنا والآخر؟ بما أن الأنا والآخر يتم تحديدهما من خلال إحساس وشعور داخلي تحرك الإنسان لأن يتخذ موقفا ايجابيا أو سلبيا تجاه نفسه أو الآخرين، وعليه فالأنا أنات، والذات ذوات، والآخر أخرات، فالأنا يقابلها النحن، فهناك " الأنا الفردية والجماعية، تظهر من خلال الشخصية وتتبلور من خلال الواقع التي تؤثر فيه"[6]. ولتوضيح أكثر فمثلا الأنا (مؤرخ ص) يتكلم عن أو باسم الأمة أو الوطن أو الدولة (الذات الجماعية)، ويكون الآخر أيضا فردا أو جماعة أو قريبا أو بعيدا أو صديقا أو عدوا ولذلك فالأنا والآخر شيئين متلازمين غير منفصلين "فالأنا والآخر مولودان معا"[7]. وقد بنيت الثنائية بين الأنا والآخر منذ مدة ليست بالقصيرة بعقلية تحدي الواحد للآخر، أي نظرة منتصر ومنهزم، قوي وضعيف، منتج ومستهلك، الحرب والسلم وعليه فصورة حكم أحدهم على الآخر تتقلب بحسب الأمزجة واختلاف المصالح وتعارضها وبحسب الواقع المعيش لكل منهما، فحكم الأنا على الآخر أو العكس "يتداخل فيه الواقعي بالمثالي، والداخلي بالخارجي" [8].

وإذا عالجنا مثلا موقف الأنا اليهودي من الآخر الفلسطيني، فيظهره في كتاباته وفي سياساته على أن الفلسطيني رافض للسلام والحل الوسط، وعدو لدود لا بد من قمعه والتخلص منه، ويجب ترحيله جماعيا[9].

من هو الأنا ومن هو الآخر، فإذا تم التعرف على واحد منهما تم التعرف على الآخر فأحدهما نور والآخر ظل له،"فالآخر هو المختلف عن الأنا في الجنس والانتماء، والدين الفكر والعرق، فالمواجهة السياسية والعسكرية هي سبب الصراع بينهما، أما علاقة الذات العربية بالآخر من الناحية الثقافية والاقتصادية والتكنولوجية فقد بدت ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها"[10]. هل الذات العربية مستعدة أن تنزوي في مكان آمن بعيدا عن الآخر الغربي الذي هو بصدد صنع المعرفة والمعلومة والفكرة والحضارة رغم ما يعاب عليه.

وهكذا تعددت قراءات وتفاسير الباحثين حول المعنى الحقيقي لمفهوم الأنا، ولذلك يجب التميز بين الهوية الذاتية التي تتغير ولكنها تبقى في الوقت نفسه محافظة على ذاتها رغم مرور الزمان، وبين هوية ثابتة لا تتغير، تنتمي الذات الأولى إلى عالم الوجود، بينما تنتمي الثانية إلى عالم الأشياء[11].

وفي الحقيقة هناك علاقة كبيرة بين الذات والآخر، فيمكن للإنسان أن يعرف ذاته من خلال معرفة ذات الآخرين "لأن الذاتية تتضمن غيرية(آخرية) [12]، ولكن ليس في كل الحالات تعني الذات الأنا، فهناك حالات استثنائية، وإذا استحقت الذات التقدير مهما كان هذا التقدير، فإن ذلك لا يكون بسبب انجازاتها ولكن بسبب قدراتها وهي قدرة مادية (جسدية) وأخلاقية[13].

إن الجدلية المفروضة والحتمية بين الأنا والآخر تتطلب تجاذب الاثنين لبعضهما البعض لوجود رابطة قوية تعمل أن لا ينفصلا الاثنين أبدا، بل يبقيان على هذا الخيط الذي يوصلهما بحيث لو وجه خطابا إلى أحدهما فالثاني معني به، وإن كان لا يهمه أو لا يريد أن يطلع عليه، وفي هذا السياق يقول ريكور "فحين أقول أنت إلى آخر، فإنه يفهم "أنا" بالنسبة إليه وحين يوجه الكلام لي بصيغة المخاطب، فإني أشعر أن الأمر يهمني بصيغة المتكلم [14]. لا لشيء إلا لأن مصالح الأنا متشابكة مع قضايا الآخر، فغيرية الغير هي آخرية الآخر [15] بل تكوين معنى الأنا في معنى الآخر[16]، فهناك تعاون ولو ضمني بين الأنا والآخر، رغم وجود عداوة أو سوء تفاهم بينهما، لا لشيء إلا لوجود علاقة بينية بين الذات المتأثرة والآخر المؤثر[17].

ففي الرحلة البطوطية فإن الآخر(المصري) يتجلى في القضايا الدينية والامور اليومية كالأفكار والقيم والثقافات، فالآخر ما هو إلا صورة احتمالية تركز على اللامألوف ثم صوره المعدلة المتشكلة عن الآخر[18]. ويتشكل الوعي بالآخر في نظر ابن بطوطة من تمثل الآخر في شكل شخصية تتغير وتتحول من أثر واقعي إلى صورة فن وثقافة ونظرة [19].

II- طبيعة جدلية العلاقة بين الأنا والآخر:

الحقيقة التي لابد منها هو أن الحديث عن موضوع العلاقة بين الأنا والآخر يقودنا حتما إلى أن نتكلم على الآخر والأنا معا، فنكون مجبرين على ذلك لا لشيء إلا لأن الأمور متشابكة ومتداخلة لتأثير الواحد منهما في الأخر ماضيا وحاضرا ومستقبلا لآن صورة الآخر ما هي إلا وسيلة وليست غاية لرسم صورة الأنا لفهم الذات، والعكس صحيح، وعليه فإن صورة الآخر حاضرة وبقوة في الوعي العربي ، سواء أكانت صورة سلبية أم إيجابية، صحيحة أم خاطئة ، موضوعية أم ذاتية، وما هي الفروق الموجودة بين ثنائية الأنا والآخر؟ قد تكون

صورة الأنا عن الآخر سلبية أو ايجابية، فوجود الأنا يكون بالضرورة بوجود الآخر والعكس صحيحا لأن "الأنا مقوم جوهري من مقومات الذات"[20].

1- خصوصية الأنا العربية :

فكل من يؤثر ويتأثر بالأنا في محيطه الإقليمي والدولي فهو الآخر، فبالرغم من وجود خصوصية الأنا العربية إلا أن علاقة الأنا العربية بالآخر الأوربي هي في غالبها علاقة انبهار وتقليد وكذلك فهي علاقة توتر وصراع، لغياب الثقة بينهما وعدم تكافؤ ميزان القوى، فهي علاقة تابع لمتبوع، سيد ومسود. لذلك "يشكو الإنسان العربي من قلق الانتماء والهوية، وهي تحديات يواجهها الإنسان العربي وهو يحاول النهوض بذاته فيحاول أن يغني هويته بالتواصل مع الآخر، فيتصدى لكل من يريد مسخها "[21].

هل الانفتاح يهدد الخصوصية؟ الأنا العربية مربوطة برباط قوي مع الآخر ولذلك يجب أن نعرف ماذا يريد العرب من الآخرين والعكس صحيح حتى تتبدد الشكوك وتتلاشى الأحقاد وتتشابك الأيدي"لأن استعلاء الأنا يولد استعلاء الآخر"[22]. وإذا استطاع الآخر القضاء على الهوية العربية أو إضعافها والتشويش على ثوابتها ، هنا فقط يسهل على الآخر القضاء على الخصوصية العربية .

فالذات العربية اليوم في ضل زحمة العولمة يتجاذبها اتجاهين أحلاهما مر الانغلاق والانفتاح، فهي حائرة لا تدري كيف تتصرف، فإما المحافظة على ذاتها وخصوصياتها وبالتالي حرمانها الكثير من منافع الآخر، أو الانفتاح على الآخر وفي هذه الحالة قد تتعرض هذه الهوية إلى الذوبان أو الاندماج في الآخر، خاصة "وأن الذات الخائفة من الإمحاء تزداد تقوقعا على نفسها وترفض الآخر، لكن المثقف يبتعد عن هذا، فيخرج هويته من إطارها الجامد،ولأنه أكثر الناس وعيا بالهوية، لقدرته على تجاوز المألوف والابتكار"[23]. وهكذا تكون عملية التفتح على الأخر من مسؤولية المثقف العربي، هو الذي يعرف متى يكون الانغلاق ومتى يكون الانفتاح متى يكون الدفاع ومتى يكون الهجوم، ولكن مشكلة المثقف العربي مهمش ومغيب عن الساحة السياسية وعن المشهد الثقافي .

للأسف بعض شرائح المجتمع العربي – العوام وبعض المثقفين- لا ترى ذاتها إلا من خلال ثنائية الآخر المعتدي، بل وجد من العرب من ينفي الغرب كلية من الحياة العربية، ويعتقد بأن الهوية العربية نقيضا للآخر، بل يجعل الآخر كله في سلة واحدة، وهي خانة العدو[24]. انظر إلى خطورة هذا التوجه، وانعكاساته على مستقبل الأمة العربية والإسلامية ، الذي يعزلها عن العالم ويضيق من طموحاتها وتطلعاتها المستقبلية فتكون بذلك أمة منفعلة لا فاعلة، إلى درجة "أن وجدنا بين العرب من يرفض استخدام المناهج العلمية للفرنسيين بدعوى الحفاظ على الخصوصية، كما وجدنا من ينبهر بإنجازات الآخر، فيقلدها إلى درجة فقده هويته الخاصة ومسحها "[25].

التطرف مرفوض في الشريعة الإسلامية ومن أي كان، والتقوقع حول الذات بدون وعي ممقوت، والارتماء في أحضان الانفتاح الغير مدروس سم قاتل، لذلك يبقى في رأي

الشخصي الطريق الوسط هو الأكثر أمنا، وهو طريق الحفاظ على الذات العربية في مقابل الانفتاح على الآخر " بشرط واحد وهو توفر الذات المبدعة التي تدفع الإنسان نحو التحرر من الآخر، إن أجدادنا العرب لم يشعروا بالخوف على هويتهم ، حين انفتحوا على ثقافة الآخر لأنهم كانوا أقوياء واثقين من أنفسهم"[26].

2- **هيمنة الآخر على الذات العربية :**

لقد ارتكب الطرفين العربي والآخر عدة أخطاء وتجاوزات قاتلة في حق الآخرين وكان المتضرر الأكبر من هذا الصراع غير المتكافئ هي الشعوب العربية المغلوبة على أمرها ، فبالإضافة إلى تضيع الوقت في كل مرة بسبب إعلاء صوت أبعاد الحوار والتسامح والتعاون، وكما حملنا في السابق المسؤولية للإنسان العربي فكذلك نحمل الآخر الأوربي نفس المسؤولية بسبب "سوء فهم الآخر للهوية العربية الإسلامية خاصة من قبل المستشرقون الذين وظفوا فكرهم لخدمة الاستعمار، فالآخر الغربي يدرس الأنا دائما من موقع الهيمنة والإقصاء، وعليه فالمعرفة والمعايشة خير وسيلة لفهم الخصوصية " [27]. علما بأن الوعي بالذات معناه الوعي بالتاريخ، وهو احد أهم العناصر الأساسية للهوية العربية.

ليس هذا فحسب، بل يختزل الآخر الإنسان العربي برمته في أمور مبالغ فيها وهي ظاهرة الاستبداد وغياب الديموقراطية، واستفحال الذكورية، أي مسألة إهمال دور وحقوق المرأة العربية، والشهوانية، ويقصد بها الممارسة الجنسية الشاذة، فكانت النتيجة وجود " غرب قوي مهيمن وشرق صامت واهن، سلبي يقبل الاختراق فالغرب يريد من الذات العربية التبعية "[28].

وهل تغيرت نظرة الآخر الغربي إلى الأنا العربي خاصة بعد انتشار خطر العولمة ففي نظر الدكتورة ماجد حمود، يوجد فعلا تغير نسبي لأنه بحسب رأيها وسائل المعرفة باتت متاحة للجميع[29]، ولكن ومع ذلك وعلى ما يبدو لا يزال العرب المسلمين هم الأكثر عداء في تصور الوعي الغربي الذي صار يحكم على العلاقات بين الدول والأمم من منطلق إيديولوجي وعرقي وجنسي بحت، على الرغم من التقدم العلمي والتكنولوجي الرهيب الذي حققه الغرب واحتكره في محاولاته تركيع وإذلال العالم العربي والإسلامي حتى تخلو له الساحة السياسية والاقتصادية من دون منافس شريف له .

وحمّل بعض النقاد العرب مثل منذر الكيلاني الأمة العربية مسؤولية المشاركة في تشويه صورتهم حين يعيشون في قالب جامد[30]. أما زكي نجيب[31] "فقد انتقد الذات العربية بسبب إيثارها اللامعقول وعدم الاهتمام بمعالجة الأفكار بعمق وآلمه أننا أمة تركن إلى وجدانها من دون عقلها، لأن العرب لا يستفيدون من أخطائهم"[32].

فكان من واجب الطبقة المثقفة إبراز خصوصيات الذات العربية حتى تتربى عليها الناشئة، لحمايتها من سياسة المسخ، وتحصينها من كل دخيل مضر بالثقافة العربية ونشر ثقافة الاعتزاز بالتاريخ والتراث والأدب الأصيل، لكن كيف كانت إشكالية الأنا والآخر (

المستعمر) في رواية الروائي واسيني الأعرج[33] في " كتاب الأمير" خاصة وأن الروائية الدكتورة ماجدة حمود قامت بانتقاد هذه الرواية التاريخية فلاحظت وجود عدة مؤاخذ عليها، مما جعلها تطرح عدة أسئلة استفسارية استنكارية تلوم فيها الروائي الجزائري واسيني الأعرج، انطلاقا من قراءتها النقدية المتفحصة لهذه الرواية، فرأت في واسيني ذلك الرجل المسالم المستسلم لطروحات الاستعمار الفرنسي من خلال استنطاقه لشخصية الأمير عبد القادر[34]، التي ترى بأنه لم يعطيها حقها التاريخي، وذلك بتقميصها تاريخا لا يليق بمجاهد كالأمير عبد القادر الذي دوخ فرنسا بخططه العسكرية وسياسته الشورية الرشيدة، لذلك طرحت الدكتورة ماجدة حمود عدة أسئلة وأجابت عليها بطريقة حضارية وبلغة مباشرة.

فتساءلت الدكتورة ماجدة حمود، قائلة، ماذا يعني تستر الرواية التاريخية على تصرفات الآخر المستعمر الوحشي؟ ولماذا سيطر صوت واحد للآخر (مسالم ومتسامح وخيّر)، فأغفل بذلك الصوت المعتدي الذي أصر على البقاء في الجزائر مائة وثلاثين عاما [35]، ولم يخرج منها إلا بالثورة والدم [36].

وتواصل الدكتورة ماجدة حمود مآخذها الكثيرة والمتتالية للروائي الجزائري واسيني الأعرج وهذه المرة على قضية المبالغة في استخدام اللغة المستسلمة كما سمتها، ثم تقول " حتى وجدناه يلغي حق الجزائريين في الحرية، ويساوي بين الضحية والجلاّد خاصة عندما قال نابليون[37] للأمير وهو يهديه سيفا قبل مغادرته فرنسا، وختمت الدكتورة ماجدة بسؤال تاريخي هام ومعبر هو: أيمكن لمن قاتل الاستعمار 15 سنة أن يتحدث بمثل هذه اللغة المستسلمة " [38].

III- أهمية الترجمة كوسيلة رئيسية للتواصل العربي مع الآخر:

هناك عدة قنوات اتصال عربي مع الآخر الغربي على وجه الخصوص، بعضها قديم والبعض الأخر حديث ومعاصر، و يمكن إجمالها فيما يلي:

توجد عدة شواهد تاريخية وعلمية وحضارية على اتخاذ الترجمة كوسيلة حضارية للاتصال بالآخر، لأن "معرفة الآخر تقود تدريجيا إلى معرفة الأنا "[39]، عندما تتعرف الأمة العربية على الآخر المتقدم والمتحضر والمنتج والقوي، حتما ستقارن أحوالها بأحواله وإمكانياتها بإمكانياته، هنا فقط تتأكد من حقيقة ضعفها وتخلفها، وما كان ليحصل كل ذلك لو لم تحتك الأمة العربية بالأمم الأخرى عن طريق مسألة التعريب[40] والتعجيم[41] قديما وحديثا فالترجمة بحكم قوة تأثيرها في الطرفين العربي والغربي فتعد أقوى صورة بعد الإعلام لتبيض صورة الإنسان العربي المشوهة والمقلوبة في ذهن الآخر الأوربي، ولكن هل العرب اليوم في المستوى المطلوب لأن يقوموا بهذا الحمل الثقيل، فكم "الصادرات من النصوص التي أنتجناها واخترناها لتمثلنا لدى القارئ الآخر"[42].

وهكذا تلعب الترجمة دورا هاما وخطيرا في التعريف والتشهير بالذات العربية، انطلاقا من الاستثمار في صناعة الكتاب، ولذلك فالمطلوب من طبقتي النخبة والمثقفون أن يعووا جيدا حجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم، في ترقية الكتاب كما ونوعا وإخراجا ونشرا وتوزيعا وتصديرا. فأصبح الكتاب نعم السفير للإنسان العربي لأن يقدم صورة صادقة عن ذاته، ويحاول أن يمحوا تلك الصورة السلبية[43] اللاصقة في ذهن الآخر التي كونها من خلال قراءته للكتب الصفراء التي ألفها الآخر عن العربي المسلم منذ الحروب الصليبية، بل قل من فترة ظهور الإسلام. وعليه صراعنا مع الآخر يتطلب إعداد العدة بدءا من تطوير التعليم وتحسينه، بإعطاء قيمة أكبر فأكبر للعلم والمعرفة المبني على المزج بين الأصالة والمعاصرة، وذلك بالتفتح على ثقافة الآخر والتعامل معها بإيجابية كبيرة، على ضوء ما اصطلح على تسميتهما بالمثاقفة[44] ولكن لا للتثاقف[45] الفكري المبني على العنصرية. فبدون ترجمة حقيقية كاملة ومتكاملة لن تحدث مثاقفة سليمة وعادلة، يمكن أن يتحول التثاقف إلى مثاقفة إن تنازلت القوى العظمى عن عنجهيتها ونظرتها الدونية إلى الدول الصغرى الضعيفة، على أن يكون "الهدف الأوحد من غالبية ترجمات النصوص العربية إلى اللغات الأجنبية هو: تحسين صورة العرب في المجتمع الغربي، وتعريفهم بالأدب العربي"[46].

وأحسن وأفيد ترجمة هي ترجمة الطفل باعتباره رجل المستقبل، علينا أن نغير نظرة الصغار من الأوربيين إلى العالم العربي، وذلك بترجمة كتب أدب الطفل العربي إلى اللغات الأجنبية حتى نربح الوقت والجهد في تبيض صورة الأنا عند الآخر، لكن لا بد من إنتاج قوي وثري، وهذا ما لم يتحقق لحد الساعة، بل لا أكون قد أفشيت سرا إن قلت بأن أقل إنتاجا للثقافة في الوطن العربي هي ثقافة الطفل، الفئة العمرية الهامة والأكثر حرمانا من الكتابة، فالكل يخاطب الكبار أدبا وشعرا وقصصا، وفنونا ورياضة وعلوما...فالترجمة "تساعد الأطفال على فتح أبواب الحوار مع الآخرين من خلال التعرف على ثقافتهم ...ولا ننسى أن من أكثر الكتب التي استمد منها الطفل الأجنبي ثقافته عن العالم العربي "رحلات أيسوب"[47] والتي تظهر العرب على أنهم مخادعين وهمج" [48].

فإما أن يسارع الأنا العربي بجميع مكوناته إلى إنشاء شبكة إعلامية كثيفة خاصة القنوات الفضائية التي تخاطب الآخر بلغاته المتعددة، وبثقافته المتنوعة وإما يبقى هذا الأنا مهدد في هويته وتراثه وثقافته وفكره، وتزداد صورة الأنا سوءا وازدراء عند الأخر، وإما في النهاية أن نتغير من الداخل بمحض إرادتنا وإلا نغيّر من الخارج بالقوة لأنه ثبت باليقين بأنه "من لا صورة له لا وجود له، ومن صنعت له صورته، صنعت معها أدواره، ومن صنعت له أدواره، أضاع فرصته في الحياة ".[49]

للترجمة عدة مزايا وفضائل على إحياء الضمير العربي الغائب والمغيب عن الساحة الثقافية الدولية، فالترجمة الحضارية الواعية خاصة من اللغة العربية إلى اللغات الحية [50]

العالمية، وبعدها تلاحظ كم هي الإيجابيات التي سيحصل عليها الضمير العربي لو يقوم العرب بإحداث انقلاب جذري على مستوى التعليم بجميع مستوياته من الابتدائي إلى الجامعي، ومن هنا فقط تبدأ النهضة الحقيقية، ومن النهضة التعليمية بدأت نهضة الأخر، ولكي يصل العرب إلى هذا الهدف السامي، يتطلب تضحيات جسام على جميع الأصعدة ،فالأمة العربية تحتاج إلى قرار شجاع من كبار مسئوليها، وإن فعلتها بصدق وإخلاص تكون قد دخلت التاريخ من بابه الواسع، وجسدت أمة "اقرأ" التي تحيى به وتموت بغيابه.

فالترجمة تعمل على محو الأمية وهي تشكل جسرا قويا ومتينا للتواصل بين مختلف الثقافات والحضارات، وهي مجال حيوي ونشيط لتحقيق العصرية المنفتحة على الآخرين [51].

IV- بعض حلول الإشكالية بين الأنا والآخر :

أكيد لكل مشكل حل، انطلاقا من مبدأ لكل داء دواء، ولكن أكيد أيضا أنه لكل مشكل مشاكل وتداعيات أخرى أفرزها ذلك المشكل الخطير، وعليه فإن مشكلة المشاكل عند العرب تراكم المشاكل وصعوبة إيجاد حلول لها في غياب وجود سياسة واضحة متكاملة ومتناسقة، ولأجل تحقيق الانفتاح على الخارج، يجب الارتقاء بالإنسان العربي، وذلك بزرع ثقافة الحب والتسامح والخير والعدالة، والابتعاد عن خطابات التشنج ورفع الأصوات والاتهام غير المؤسس، وممارسة النقد الذاتي (مراجعة النفس)، "فلا نتسامح مع أنفسنا ونظلم الآخر، بل نتحدث عن أخطائنا مثلما نتحدث عن أخطاء الآخر"[52]. أما جاك دريدا [53] فقد دعا إلى احترام ثقافة الاختلاف، واتهم الغرب بإقصاء المختلف[54].

ومن أجل تحقيق وإشاعة ثقافة العيش المشترك فقد اقترح الأستاذ علي عباس مراد[55] شرطين هامين هما: الاعتراف بحق الآخر في الوجود والتعايش، والاختلاف والتعبير الحر والعلني والسلمي عن الذات، والاعتراف بالأخر شريكا كاملا في الحقوق والواجبات [56].

خاتمة:

للذات العربية خصوصية حضارية وثقافية نابعة من احتكاكها بالأخر الأوربي عن طريق التجارة والثقافة والاستعمار، لذلك كان من الأفيد والأصلح للطرفين العربي والأوربي سلوك أسلوب حضاري مبني على ثقافة الحوار والتسامح والتعاون الاقتصادي والتكنولوجي مع محافظة كل طرف على كينونته في إطار الاحترام المتبادل بدون ضغط و لا مساومة ولا إرهاب بعيدا عن سياسة التدخل في الشؤون الداخلية لكل طرف.

---

(1) جاك غودي، **الشرق في الغرب**، ترجمة الدكتور محمد الخولي، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت 2008، ص 10.

[2] نفسه، ص 11.

[3] نفسه، ص 26.

[4] عمرو عبد العلي علام، **الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي**، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة ص 9.

[5] نفسه، ص 17.

[6] نفسه، ص 10.

[7] نفسه، ص 11.
[8] نفسه، ص 15
[9] نفسه، ص 147.
[10] ماجدة حمود، **إشكالية الأنا والآخر " نماذج روائية عربية "**، دار عالم المعرفة الكويت 2013 ، ص 16.
[11] بول ريكور، **الذات عينها كآخر**، ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2005، ص 49-50.
[12] نفسه، ص 599.
[13] نفسه، ص 361.
[14] نفسه، ص 380.
[15] نفسه، ص 606.
[16] نفسه، ص612.
[17] نفسه، ص 607.
[18] نواف عبد العزيز الجحمة، "صورة الآخر في رحلة ابن بطوطة"، **مجلة العربي**، عدد 552، الكويت، نوفمبر 2004، ص 90.
[19] نفسه، ص 90.
[20] نفسه، ص 12.
[21] ماجدة حمود، المرجع السابق، ص 11.
[22] نفسه، ص 14.
[23] نفسه، ص 15.
[24] نفسه، ص 17.
[25] نفسه، ص 17.
[26] نفسه، ص 17،18.
[27] نفسه، ص 19.
[28] نفسه، ص 20،21.
[29] نفسه، ص 22.
[30] نفسه، ص 25.
[31] زكي نجيب (1905-1993)، مفكر وفيلسوف مصري لامع، لع عدة كتب في الفلسفة منها :(جابر بن حيان..)، وفي الفكر والثقافة (ثقافتنا في مواجهة العصر..).
[32] ماجدة حمود، المرجع السابق، ص 26.
[33] واسيني الأعرج، روائي وأستاذ جامعي جزائري ولد بإحدى قرى تلمسان سنة 1954، يكتب باللغتين العربية والفرنسية، ومن أهم رواياته ، رماد الشرق.
[34] الأمير عبد القادر الجزائري (1808 - 1883)، رجل عسكري وسياسي وأديب وصوفي جزائري قاوم الاحتلال الفرنسي من 1832-1847 .
[35] وفي الحقيقة فالأصح هو مائة واثنان وثلاثون سنة .
[36] ماجدة حمود، المرجع السابق، ص 216.
[37] نابليون (1808- 1873)، امبراطور فرنسا من 1852-1873، زار الجزائر 1863، وكان حلمه تكوين امبراطورية عربية تمتد من الجزائر إلى بغداد.
[38] ماجدة حمود ، المرجع السابق ، ص 218.
[39] محمد سعيد الريحاني، "الترجمة جسر عبور بين تقديم الذات والتعريف بالآخر"، ***مجلة الجوبة*** ، عدد *33، السعودية 2011، ص 17.*
[40] نقصد به ترجمة الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية وهي كثيرة جدا ومتنوعة : فنون، آداب ، علوم ...
[41] ونعني بها الكتب العربية التي ترجمت أو يقوم العرب بترجمتها إلى اللغات الأجنبية.
[42]ماجدة حمود ، المرجع السابق، ص 20.
[43] من أخطر و أقبح النعوت التي رسمها الأخر عن الإنسان العربي: تسلط الرجل على المرأة، الهمجية، الفوضى، الإرهاب، الغدر والخيانة، التبدي، اتباع الشهوات، الحقد والكره للآخر ، معاداة السامية...

(44) هو مصطلح اثربولوجي أمريكي ظهر سنة 1880، يعني تلاقح وتعايش وحوار الثقافات والحضارات، أو التفاعل الثقافي بين ثقافة الأنا وثقافة الآخر، على أن يكون هذا التعاون قائما على مبدئين هامين هما التأثير والتأثر والاحترام المتبادل، ويبقى كل طرف محافظا على خصوصياته الثقافية والحضارية .

(45) هناك تثاقف سياسي وعسكري، وأخطره في الحقيقة التثاقف الفكري واللغوي والحضاري، لأن ثقافة الأمة القوية هي التي تسيطر على ثقافة الأمة الضعيفة، ومن خلال هذا التثاقف تأثرت الذات العربية بغزو فكري رهيب تمثل في دخول الفكر القومي والرومانسي والمثالي والوجودي والسريالي والاشتراكي والشيوعي ...

(46) عبد الله الطيب، "حوار الثقافات في الإبداع الفكري المترجم"، ***مجلة الجوبة***، *عدد 33، السعودية، ص 29.*

(47) ويكون صاحبه كما تقول بعض الروايات حكيم يوناني (560-620 ق.م) طبع لأول مرة سنة 1484م، فترجمه الأوربيين وحرفوه واستخدموه ضد العرب، ومما جاء في هذا الكتاب: إن العرب أعظم كذبة في العالم .. وأنهم مولعون بالكذب والغش .. لقد سلبوا كل ما في عربة هرميس من الأكاذيب حتى يستأثروا بها.

(48) مرسي طاهر، "ترجمة الأطفال وأهميتها في التواصل الحضاري"، ***مجلة الجوبة*** ، *عدد 33، السعودية ، ص* 38.

(49) سعيد الريحاني، مصدر سابق، ص 20.

(50) هناك عدة معايير لمعرفة هذه اللغات أشهرها، والأكثر استعمالا في العالم، وهي عشر لغات: اللغة الصينية، الإنجليزية، الإسبانية، الفرنسية ، الألمانية ،الهندية، العربية، البرتغالية، الروسية، الأردية .

(51) الطيب بكوش، "الترجمة في التقاليد العربية"، ***مجلة الجوبة*** ، *عدد 33، السعودية 2011* ص 15.

(52) ماجدة حمود ، مرجع سابق ، ص 23، 24.

(53) جاك دريدا(1930-2004)، فيلسوف ومثقف فرنسي بارز، ولد بالأبيار بالجزائر العاصمة، له أكثر من عشروين كتابا، فهو رائد نظرية التفكيك في الفلسفة.

(54) ماجدة حمود ، مرجع سابق ، ص 24.

(55) علي عباس مراد أستاذ جامعي بقسم العلوم السياسية بجامعة بغداد.

(56) رياض زكي قاسم ، **الهوية وقضايا في الوعي العربي المعاصر**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2013، ص 314.